بهذا تم انتقال الحكم في مصر إلى أيدي المماليك، لكن كان هناك أيضاً عدد من الأكراد واليونان والأرمن وغيرهم، وكان الأيوبيون يفضلون الأتراك ويقربونهم ويعتمدون عليهم . بعد انقراض الدولة الأيوبية خُيل للمغول أن الوقت قد حان لمهاجمة مصر واحتلالها، وأرسلوا يهددون ويتوعدون المماليك بضرورة الاستسلام. دفع الأموال المطلوبة ورضي بالمذلة ، وشعر الناس بأنهم مدينون لأولئك الشجعان بالولاء والوفاء، هكذا حصل المماليك على حق شرعي في حكم مصر وسوريا بلا منافس وفي لحظة الانتصار العظمى ضرب المملوك (بيبرس) ضربته وقتل زميله المملوك (قطر) كي يستأثر وحده بحكم البلاد، حتى وصل إلى الأيوبيين، الذين درّبوه أسرع (بيبرس بعد تلك الأحداث إلى مصر كي ينفرد وحده بقطف ثمار النصر العظيم، 3 شرقي الدولة الإسلامية نحن الآن في الساحة الهامة التي جرت عليها الأحداث المتصلة بسيرة جلال الدين الرومي، وربما كان بُعْدُ هذه المقاطعات عن مركز الدولة العباسية (بغداد)، لكن خوارزمشاه محمد بن تكش) استطاع التغلب على الغوريين حالما تسلم السلطة بعد وفاة والده، كل ذلك هيأ لخوارزمشاه محمد بن تكش الفرصة لاجتياح بلاد الجبل وقزوين وهمدان وأصفهان، وبهذا انقرضت دولة الغوريين التي يصفها ابن الأثير بأنها كانت من أحسن الدول) . ومن أجل تحقيق ذلك جهز جيشاً كبيراً وسار متوجهاً إلى بغداد، لكن السنة الجديدة 616هـ غيّرت جميع أفكار خوارزمشاه محمد، ففي هذه السنة المشؤومة على المسلمين جميعاً كما سنرى، فما كان من خوارزمشاه محمد بن تكثر إلا أن يسرع بجيوشه نحوه، تحرك جنكيز خان سنة 616هـ عازماً على ابتلاع الأراضي الإسلامية واحدة بعد الأخرى، فمضت جحافلهم الجرارة تجتاح البلدان دون أن تجد من يتجاسر للوقوف في وجهها وقد بذل جلال الدين بن محمد بن تكش خوارزمشاه محاولات كثيرة لرد الاعتبار إلى سمعة والده، في جلال الدين خوارزمشاه بن محمد بن تكش تتباين آراء المؤرخين، ففي حين يُجمع المؤرخون العرب على انتقاده، يقول بعد تسجيل نبأ هزيمة جلال الدين خوارزمشاه سنة 628هـ، ثم عادى علاء الدين كيقباذ صاحب الروم الأناضول»، ويكف عز الدين ابن الأثير عن إكمال حكاية جلال الدين خوارزمشاه بسبب اضطراره إلى إنهاء كتابه فجأة، بعد إصابته بالمرض الذي سيؤدي إلى وفاته سنة 630هـ ، وهرب جلال الدين خوارزمشاه إلى نهر السند كسيراً فرأى والدته وزوجته وجماعة من نسائه وهنّ خائفات من الأسر، فأمر بهن جميعاً فغرقن جميعاً في النهر !!» هذا الحادث الفظيع الذي لم يُسمع بمثله في تاريخ الإسلام كله، ولستُ أدري كيف يمكن التوفيق بين وجهتي النظر المذكورتين المهم في كل هذا أن المغول مضوا من بعد ذلك يُكملون حملاتهم يخربون ويقتلون ويستبيحون المحرمات على حد وصف ابن الأثير لسيرتهم. وعينوا (معين الدين براولة) نائباً عنهم في حكمها . 4- دولة الموحدين في الأندلس ليس في سيرة جلال الدين الرومي شيء ذو صلة بالأندلس وأهلها، لذا لم نجد ما يحوجنا إلى نشر صفحات التاريخ الخاص بهذه البلاد، كما عُرف عنه أنه كان ينتقد فكر أبي حامد الغزالي في كل مناسبة وقد تعرّضت مؤلفات الغزالي إلى الإهانة، ثم إن ابن طفيل قدم صديقه الفيلسوف ابن رشد إلى مخدوميه الموحدين، كما أنه حاول الابتعاد عن فكر أفلاطون بعكس الفارابي الذي حاول جهده أن يوفق بين حاول ابن رشد، اعترف ابن عربي (المتوفى سنة (638هـ) بأنه أخذ التصوف أثناء مقامه أو نشأته في الأندلس على أيدي (55) شيخاً وشيخة من المتصوفة هناك. وعلى هذا فإنَّ التكون الروحي لابن عربي قد تمَّ أثناء نشأته في موطنه الأندلس، ولعل من المفيد أن نذكر القارئ بأنّ ابن عربي معاصر لابن الفارض (سلطان العاشقين) وقد عاش كلاهما تحت رعاية الأيوبيين، وبين أدبيهما ومعتقداتهما وشائج قوية لا تحتاج إلى برهان، ويرى المستشرق الإسباني أثين بلاثيوس أن ابن عربي هو الذي ثبت مذهب الأفلاطونية المحدثة في الفكر الصوفي الإسلامي، وكان السلاجقة يُظهرون أشدّ الإعجاب لابن عربي ويكرمونه ويعظمونه تماماً مثلما فعل الأيوبيون. وقام ابن عربي برعاية ربيبه وتوجيهه نحو عالم التصوف، فبفضل الصدر القونوي تهيأ لمؤلفات ابن عربي أن تذيع وتنتشر في جميع أرجاء العالم الإسلامي لا سيما في الأناضول وإيران والهند وحين وقعت آسيا الصغرى كلها وغيرها من البلاد تحت الحكم العثماني، واصل هؤلاء أسلوب أسلافهم السلاجقة في إظهار التعظيم والإجلال لمؤلفات ابن عربي وفكره وتصوفه. حتى أنهم نسبوا إلى بركات الشيخ الصوفي، هذا ما عرفت به هاتان الدولتان من النزعة السلفية والتزمت الديني. والتأكيد الشديد على الكرامات التي تقع له من جهة أخرى مما كان له أعظم التأثير في نفوس العامة في تلك العصور. وقد ذكرنا أن الدولتين المذكورتين آثرتا بسط الرعاية على المتصوفة والمجاذيب والدراويش، وفي مقدمتهم : جلال الدين الرومي . سيرة موسوعية عابرة للزمان والمكان 1- مصادر سيرة جلال الدين الرومي ومن ثم فإن الفارسية ظلت وسيلته الأساسية في التعبير عن نفسه، لغة رسمية لدولتهم، لا سيما إذا تذكرنا بأن الفرس والترك ظلوا طوال عهود الحكم العربي الإسلامي يحاولون بكل وسيلة الانفصال عن جسم الدولة للحصول على استقلال ولو نسبي، ثم نجح السلاجقة في إنشاء دولتهم في القرن الخامس الهجري واستطاعوا طرد البويهيين والحلول محلهم مع الاستيلاء على أماكن لم تصل إليها أيدي البويهيين لا سيما بلاد الأناضول. وبلوغها

Summarized by © lakhasly.com

أوج عظمتها في عصرها الذهبي ذلك وليس من شك في أن التشابه الملاحظ بين مناخ كل من إقليمي تركستان وخراسان كان له تأثيره الهام في تشكيل نفوس أبناء شعوب تلك البلدان، كتب جلال الدين الرومي إذن آثاره جمعاء باللغة الفارسية، التي تعلمها من طريق علاقاته بنصارى الروم المقيمين في آسيا الصغرى منذ العصر البيزنطي، وقبله أيضاً حين كانت هذه البلاد مستقراً للإغريق كما هو معروف. وقد أدّت معرفته للإغريقية الكلاسيكية وللهجة اليونانية الدارجة أيضاً، إلى تعلق النصارى لا سيما الرهبان منهم به، على أن التأثر لم يقتصر عليهم وحدهم فقد تأثر جلال الدين الرومي نفسه بالفكر المسيحي ومسالك الرهبان في الأديرة مما انعكس بشكل واضح في فلسفته وطريقته الصوفية. فيما يلي نقدّم قائمة موجزة بأسماء أهم المصنفات (المصادر التي عُنيت برواية سيرة جلال الدين الرومي، كما سيتضح في الصفحات الآتيات : ـ1- كتاب المعارف ويتضمن مجموعة أحاديث وآراء فلسفية ومواعظ أخلاقية لبهاء الدين ولد سلطان العلماء] (والد جلال الدين) قيل إن جلال الدين هو الذي جمعها في كتاب، بعد وفاة أبيه اعتزازاً بها وخوفاً عليها من الضياع. 2 كتاب المقالات للسيد برهان الدين محقق الترمزي بيزيد بهاء ولد، عُني أحد المريدين بتسجيل أقواله وحواره مع جلال الدين الرومي وغيره من أصحابه ومحبيه، إذ تسود الفوضى في جميع صفحاته ويبدو أن سلطان ولد كان يسجل كلام شيخه شمس الدين أثناء الحديث، ولم يقدر له فيما بعد أن يعيد تنظيم الكتاب، كان أحمد أفلاكي من علماء الفلك، 6- مؤلفات جلال الدين الرومي، الكتاب الأعظم بعد القرآن الكريم، وقافيتها من المزدوج أو ما يسمى بالفارسية بالمثنوي، وأشهر ذلك ألفية ابن مالك في النحو، والمثنوي صورة فنية أدبية جميلة للفكر الصوفي بحسب ويقع في ستة مجلدات. كتاب فيه ما فيه، ج. حسام الدين جلبي) أـ المولد والنشأة في بلخ : في سنة 546هـ توفي بمدينة بلخ العالم الوقور حسين الخطيبي المنتمي إلى أجيال متعاقبة من العلماء الأفاضل، الحكيمة المتعلمة بتربية ولدهما، والإشراف بنفسها على تعليمه. وما كاد بهاء الدين يبلغ سنّ الحلم حتى أصبح مدرساً ناجحاً يتزاحم على دروسه الطلبة من جميع أنحاء المدينة، وحصل على لقب سلطان العلماء في حكاية أو أسطورة طريفة تفرح بتصديقها عقول البسطاء في عصور الظلمات . وفي عام 595هـ عُقد قران بهاء الدين ولد على (مؤمنة) خاتون التي قيل إنها بنت أحد أمراء بلخ، ويلاحظ هنا أن الزيجة الأولى لبهاء ولد هذه قد تمت وهو قد تجاوز سن الخمسين، لكن أحمد أفلاكي يثبت في كتابه مناقب العارفين ومما يؤكد استنتاجي هذا أنّ الدارسين القدامي والمحدثين أيضاً، حيث ذكر أسماء جميع الذكور من الأبناء والأحفاد إلى حد عصرنا هذا، وقد أخذ هذان الرجلان على عاتقهما مسؤولية تعليم جلال الدين الذي تبدت عليه منذ الصغر مخايل ذكاء نادر مصحوب بأدب جمّ وخُلق متين حببه إلى قلوب جميع الناس، واعتاد جلال الدين أن يتوجه يومياً إلى مدرسة أبيه لينزوي في أحد أركان غرفة الدرس، مصغياً بكل جوارحه إلى ما يُلقيه والده من حكم ومواعظ وأفكار ومناقشات نظرية، ويضيف أحمد أفلاكي موضحاً بأن مؤمنة خاتون كانت مع حرصها الشديد وكانت أشد اهتماماً بإظهار رونق جلال الدين لما امتاز به من وسامة ووضاءة. وهكذا نشأ جلال الدين على عشق الجمال : جمال النفس وجمال القلب وجمال الفكر وجمال الجسد. وكان أيضاً شديد الشغف بالنظافة في كل شيء ولهذا كان يصرح بأنّ الحمام هو أحد أحب الأماكن إلى قلبه . كان شديد العطف على الحيوانات وكان يربي القطط في المنزل، ويحمل الطعام بنفسه إلى إناث الكلاب المرضعات ويسير مسافات طويلة من أجل إيصال الطعام إليها، وأحياناً كانت تصدر عنه أقوال تثير دهشتهم وارتباكهم فلا يعرفون كيف يتعاملون معه في أحد الأيام كانوا جميعاً يلعبون فوق أحد السطوح . وقد شاع عنه في ذلك العهد أنه كان يشارك عند السلاطين والملوك وأصحاب النفوذ، إلى ما نسميه اليوم (بالمودة) التي شاعت يومئذ بين جميع الحكام بلا استثناء. لم يقصروا في إكرام الصوفية بكل وسيلة ممكنة وبالطبع فبقدر ما يزداد إكرام المتصوفة، فينسحب كل فرد إلى داخل روحه، رودجرز في الأوقات الرديئة تشغل الفلسفة نفسها بالطرق التي تمكن الفرد من إرضاء نفسه وحل مشاكلها، ظهرت المذاهب الروحية الكبرى : الأبيقورية والكلبية والرواقية وأخيراً الأفلاطونية المحدثة، وهي تتفق بينها جميعاً على ضرورة الانسحاب إلى داخل النفس والانسجام معها، هذه الأفكار وأشباهها دخلت جميعاً في جذور التصوف، من المعروف أن ازدهار التصوف بالمشرق العربي في ذلك العصر واكب ازدهار علم الكلام أيضاً ، وفي سنة 548هـ توفي المتكلم الشهرستاني مؤلف الملل والنحل، قائمين الليل مغالين في الصيام مواصلين السجود، فلما تكلم الفخر الرازي، ولما طال الجدال قام غياث الدين وغادر المكان، فما كان من هذا إلا أن يلصق بالرازي (تهمة الانتماء إلى فكر أرسطو وآراء الفارابي وفلسفة ابن سينا وكلها في نظر العامة (من الكفريات ثم إن ابن القدوة بكي واشتكى إلى السماء جرأة المتكلمين على المجاهرة بالكفر، وعند هذا هاج الناس وكادت تقع الفتنة، فأرسل غياث الدين ينصح الرازي بمغادرة هراة حتى تهدأ الأحوال. غير أنّ غياث الدين ترك مذهب الكرامية، وفي ذلك الوقت، كانت دولة خوارزمشاه قد توسعت وامتدت حتى أخذه الغرور، وبدأ يمني نفسه بأن يحكم البلاد الإسلامية جميعاً. استخرج خوارزمشاه من

Summarized by © lakhasly.com

أصحاب الفتوى حكماً بعدم شرعية الخلافة العباسية وضرورة إرجاع الحق إلى أبناء الإمام علي، بحسب أي محاولة إسقاط الخلافة. كان (بهاء ولد في كل هذا متأثراً بشدة بالشاعر الإيراني (سنائي) مؤلف الحديقة (1) الذي جاهر برفض الفلسفة، زاعماً أنها لا توصل العارف إلا إلى الضلالة عن الهدف الذي هو عندهم الاتحاد بالله. وبعد وفاة الفخر الرازي سنة 606هـ واصل بهاء ولد هجومه على فلسفته، بكل وسيلة . لكن (بهاء ولد كان قد صمم على أمر كبير. وبنائه لعدة مدن على السواحل لا سيما مدينة (ألانيا) على البحر الأبيض بحر الروم» لتكون عاصمة ثانية له . وأنه اصطحب معه كلاً من زوجته مؤمنة خاتون، وولده جلال الدين البالغ من العمر ثماني عشرة سنة وعلاء الدين الذي يكبره بسنتين، كان للعطار منزلة عظيمة في نفس الرومي ووصفه قائلاً (العطار روح !). الحلاج أعلن أن روح الحلاج قد حلّت فيه، على ما هو معلوم، بعد نيسابور اتجهت القافلة نحو بغداد دار السلام وعاصمة العباسيين، يرفض هذه الحكاية جملة وتفصيلاً، خرج مع أفراد حاشيته لاستقباله عند حدود المدينة، بحسب ادعاء أحمد أفلاكي، وبعد فترة قصيرة تم بناء المدرسة فانتقلت إليها العائلة المهاجرة من بلخ، كان لمريد بهاء ولد شرف الدين لإله السمرقندي الذي صاحبه في رحلته من بلخ إلى كرمان بنت جميلة اسمها جوهر خاتون في سن جلال الدين، ودرست معه على يد والدها وعلى يد بهاء ولد أيضاً. لم تعد (لارنده) إلا مدفناً للأحباب وموطناً للأحزان. في تلك الأثناء، حكم بين عامي 618–634هـ . مما هيأ الفرصة للمغول بعد سنوات للسيطرة عليها، والتلاعب بمقدراتها على ما سنرى . رعاية سلاطينها لكبار رجال الصوفية، فقد فاز محي الدين ابن عربي (1) أثناء إقامته في قونيا سنة 607هـ بمكانة عظيمة لدى السلطان السلجوقي كيكاوس عز الدين، حتى أنه جعله بمقام مستشار شخصي في المسائل الدينية، نفسه . وألقوا على لارنده النظرة الأخيرة ثم ساروا نحو قونيا. وفي هذه المدرسة كان يلقي على طلبته ومريديه الدروس والمواعظ . ثم إنه تمثل بالتأويل الباطني للدين وللشريعة، كان الأمير بدر الدين جوهر طاش أحد المعجبين بمواهب بهاء الدين ولد، في ذلك الوقت احتفلت قونيا باكتمال قلعتها التي أمر ببنائها علاء الدين كيقباذ، فقد أهداه السلطان قطعة أرض صغيرة تقوم بجانب القلعة، في شتاء عام 628 هجرية ألم ببهاء ولد مرض لم يمهله طويلاً ودفن في المقبرة التي بناها قبل وفاته . واستطاعته قراءة أفكارهم بمجرد النظر في وجوههم، فلا يملكون إلا بعد وفاة والده استقر جلال الدين وزوجه جوهر خاتون وولداهما (سلطان ولد، فيما سبق من الفصول أشرنا إلى ملازمة برهان الدين الترمذي فكان يعتزل العالم مدة أسبوع أو أكثر وقد يحبس نفسه في غرفة مقفلة مدة أربعين يوماً لا يأكل ولا يشرب ولا يكلم أحداً ويكتفي من الطعام ولم يتحمل جسده هذا النصب والحرمان (وليس كل إنسان قادراً على تحمل مشاق رياضة المتصوفة)، فاختبل عقله وهام على وجهه وفقد الناس له كل أثر مدة اثني عشر عاماً، فأطلق عليه لقب فخر المجذوبين، ثم زاد تقدير مريديه له فصاروا يلقبونه بالمحقق، كانت النصيحة الأولى التي وجهها برهان الدين إلى (مولانا)، إذ يغفل أحمد أفلاكي الإشارة إلى هذا الحدث لسبب لا نعرفه، ويشغل نفسه بتفاصيل الأحاديث عن توجه جلال الدين إلى التصوف تحت إشراف شيخه برهان الدين، وحين يعود بعد ذلك إلى سرد أحداث السيرة الشخصية لجلال الدين نسمعه يتكلم عن زوجه الجديدة كرا (خاتون)، وعني بتوجيهه إلى جميع ما يحتاجه من كنوز العلم والمعرفة، وليس من شك في أن مولانا مدين إلى ابن العديم بأشياء كثيرة أهمها : شغفه الشديد بالشعر العربي، وحماسه لأبي الطيب المتنبي بشكل خاص، ومن ابن العديم تعلم أيضاً التسامح والإنصاف وعدم التعصب وسعة الأفق وغير ذلك من الخلال الحميدة المتجلية في مصنفات ابن العديم لا سيما كتابه الشهير في الدفاع الشريف عن أبي العلاء المعري، هذا من ناحية، حيث كان يقضي الأعوام الأخيرة من عمره، وذلك كله بعيد عن العقل والتفكير والفلسفة. أما في عهد النضج فالإنسان يحاول أن يكمل نواقص علومه من طريق التخصص. ولم يكن بإمكان الأناضول بعد العودة إلى قونيا، حتى بلوغ درجة الإنسان الكامل أو الولي. فبين كل ألفي صوفي لا يظهر أكثر من إنسان كامل أو ولي واحد. إلى أن بلغ المراتب الرفيعة العليا التي لا تُوْهَب إلَّا اللمعشوقين الإلهيين). عند هذا أحس سيد برهان الدين محقق أن واجبه قد انتهى ثم إنه نادى تلميذه جلال الدين وقال له : «بعد اليوم لن تكون في حاجة إلي لأنّ القادم الجديد سيملأ لك دنياك الجديدة على عادة سيد برهان الدين بالتنبؤ بظهور شمس الدين في سنة 638 هجرية عاد سيد برهان الترمذي إلى بلدة قيصري وفي اليوم الأخير من العام المذكور استدعى خادمه وقال له : «لك أن تغادر الدار، وكان ذاك بالفعل ولما بلغ نعيه أسماع أهل قونيا، وقد وهب التوفيق في كل ذلك، وكأنما أدرك ما ينتظره من آلام وأهوال، ومضى يطوف أرجاء العالم الإسلامي وحيداً، كان شمس قد قرأ كثيراً عن عظماء الناس، فهؤلاء في ظنه لم يرتقوا سُلّم المجد إلا على أكوام من جثث البشر، القرن السابع للهجرة بحسب ما فصلناه في الفصل السابق، كانت دماء الأبرياء تسفح أنهاراً تحت ستار الدين الذي يؤكد جميع الفلاسفة أنه لا يتناقض مع العقل، وأن كل فرد من البشر يشبه نصف تفاحة، فما يكاد يشعر بوجود إنسان على أقل معرفة به، ممن؟ ولماذا ؟ هل كان رجل سياسة؟ هل كان مطلوباً لثأر؟ هل كان على صلة بالإسماعيلية. حين صارت

Summarized by © lakhasly.com

(قلعة الموت) الإسماعيلية تصدر الإرهابيين لاغتيال كبار التنفيذيين على طول الساحة الإسلامية وعرضها، كان الإسماعيليون يُصرحون بأنهم (عازمون على إقامة دولة العدل والعقل التي حقق الفاطميون المرحلة الأولى منها)، ووقع الانشقاق بين الجماعتين، وكل هذه الأهداف الدنيوية مباينة تماماً لأهداف المتصوفة الذين يدعون إلى إماتة الرغبات الدنيوية من أجل الوصول إلى مقام الاتحاد بالمطلق .

Summarized by © lakhasly.com